يسراك كالآحاد يا ذا العلوم من يمنك فاحفظهُ واياك تعدلا (١
كذا العشرات من يمنك انها يسراك يا هذا (ألوفٌ) على الولا (٢
(وعشرة آلافٍ) لابهامك اجمعن وذلك مع سبّابةٍ يا أخا العلا
يسراك وامهدهُ كحلقةٍ استمع اذا طويت والرأس فاجعلهُ أسفلا (٣
وقد نجزت والحمد لله وحدهُ ميسّرةً تبغي اخاً متفضّلا
يسامحها فيما يرى من عيوبها فما احدٌ عن ذاك يا صاح قد خلا
فخذها عروساً قد سمت شمس ضحوة وبدر دياجٍ قد بدا متهلّلا
فان تمتنع كالبكر عند امتناعها على بعلها عند الوقاف تدلّلا
فصفّ لها ذهناً غزيراً مجوّدًا وغص في بحار الفكر ثمّ تأمّلا
ترى لمعانيها بزوغاً ككوكبٍ ويأتيك منها العلم والفضل مُقبلا

تاريخ فنّ الطباعة في المشرق

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق)

فنّ الطباعة في الاستانة العلية

ذكرنا في مقالتنا السابقة (المشرق ٣: ٧٨) تاريخ اكتشاف الطباعة وانتشار هذا الفنّ في اوربّة وألمعنا الى ما طبعهُ العلماء المستشرقون من التآليف الشرقيّة الجليلة لاسيما العربيّة الى اوائل القرن التاسع عشر. واليوم نستأنف الكلام في هذا الموضوع المفيد ونبحث عن دخول الطباعة في المشرق فنقول:

انّ القسطنطينيّة سبقت غيرها من عواصم الشرق الى هذه الصناعة الشريفة. لكنّ سلاطين آل عثمان العظام لم ينظروا في اوّل الامر الى المطبوعات بعين الرضى وانّما كانوا يخافون ان يعمد اصحاب الغايات الى الكتب الدينيّة فيحرّفوها ويشوّهوها بالتزوير. وذلك ما حمل السلطان بايزيد الثاني سنة ١٤٨٥ على ابراز حكم غالٍ نهى

١) اي كما ان اليد اليُمنى موقوفة للآحاد فاليُسرى موقوفة (للمئين)

٢) اي انّ ما يدلّ على العشرات في اليد اليمنى فهو يدلُّ على (الالوف) في اليد اليسرى والعَقْد في الاصابع واحد

٣) اي ويشار الى (عشرة آلاف) بان تجمع اباهمك الى سبّابتك من اليد اليسرى بحيث يتألّف منهما شكل حلقة

فيه رعاياهُ عن اتخاذ المطبوعات (١ وجدَّد السلطان الغـازي سليم الاوَّل امر ابيه سنة ١٥١٥. على انَّ هـذا الحكم لم يكن الَّا موقتًا وانتشرت الطباعة في دار السعادة برخصة أولي الامر

وكان اوَّل من سعى بانشاء مطبعة في الاستانة العليَّـة يهوديّ عالم يدعى الرّبي اسحق جرسون قدم الشرق لينشر بين اهل ملَّتهِ الكتب المطبوعة ويغنيهم عن المخطوطات التي لم يُحصل عليها الَّا بالمشقَّة لندرتها. وتاريخ هذه المطبعة يرتقي الى اواخر القرن الخامس عشر. وكانت حروفها عبرانيَّة وقد طبع اصحابها بعض الكتب العربيَّة بالحرف العبراني

وهذه المطبعة الاولى في الشرق ادَّت للآداب العبرانيَّة خدمةً جليـلة مدَّة ثلثمائة سنة ولو اردنا إثبات قائمة الكتب العبرانيَّة التي نُشرت في الاستانة لطال بنـا الكلام واورث ذلك سأمًا للقرَّاء. فانَّ عددها ينيف على مئة كتاب في جميع الفنون لكنَّ الاغلب عليها العلوم الكتابيَّة وشروح الاسفار الالهيَّة وهي كلها لعلماء الربانيـين من قدماء ومحدثين. ومما ساعد على ترقّي هذه المطبعة في الاستانة نفوذ بعض اليهود عند ذوي المنـاصب وكان بينهم نُطُس الاطبَّاء وعظام التجَّار. واوَّل كتاب طبعهُ الرّبي جرسون في دار السعادة يرتقي عهـدهُ الى سنة ١٤٩٠ م وهو ملخَّص تاريخ اليهود ليوسيفوس بن كربون (٢. ثمَّ تعدَّدت هذه المطبوعات العبرانيَّـة وانتشرت بين العلماء ودونك بعض اسمائها بالعربيَّة مع تاريخ طبعها: شرح سفر استير لاسحاق جرسون (نحو ١٤٩٥). كتاب رأس الايمان للعلامة اسحق ابرابنيل (١٥٠٥) مجموع امثـال قديمة بالشعر لاسحاق صهلة (١٥٠٦). التلمود الصغير لاسحاق بن يعقوب الناسي (١٥٠٦). مختصر الشرائع لاسحاق بن كربيل (١٥١٠). معجم ناثان بن يحئيل (١٥١١). ومعجم داود كمخي (١٥١٣). ومجموع شروح للرَّبانيين(מדרש) على اسفار التوراة (١٥١٢). وقد طُبع في الاستانة نحو خمسة عشر شرحًا على التوراة كلُّها لمشاهير علماء اليهود كشروح يعقوب بن اشر (١٥١٤) وابراهيم صبا الاشبوني (١٥١٤) وشرح ابراهيم بن يهوذا المتطبب (١٥٢٧) وكتاب المشنة لموسى بن ميمون الكاتب الشهير (١٥٠٩). هـذا

---

١) راجع Notices et Extraits des Mss, I, 1787 p. XXVIII

٢) راجع معجم الدكتور روسّي D^r G. B. de Rossi: *Dizionario degli Autori Ebrei* I, 149

فضلًا عن شروح مفردة لكل سفر من الاسفار الالهيَّة كشرح سفر ايوب لاسحاق كوهن (١٥٤٥) وشرح الجامعة لصموئيل ارجول (١٥٨٦). وشرح المزامير لابراهيم حانيم (١٧٥٠). ومن مطبوعات القسطنطينية التي حازت شهرةً عظيمة كتاب التوراة العبرانيَّة مع شروح الزّي انكلوس (Onkelos) الشهير والترجمة العربيَّة لسعدي (او سعيد) الفيومي من ادباء القرن العاشر للمسيح والترجمة الفارسية للطوسي. وكلُّ هذه النصوص الاربعة بالحرف العبراني طُبعت في الاستانة سنة ١٥٥١

وقد ابرز يهود الاستانة كتبًا اخرى ادبية كديوان ابن ازرع بالعبرانيَّة ومقامات يهوذا الحريزي من كتبة القرن الثالث عشر اتَّبع فيها طريقة الحريري (١٥٤٠). وديوان ابن جبرول (١٥٤٥) وهو الفيلسوف الشاعر الشهير المتوفّى سنة ١٠٧٠ م. وديوان عمّانوئيل بن سليمان (١٥٣٥) وكتاب מרפה לשון اي مقوّم اللسان في اللغة العبرانيَّة لحبيب موسى (نحو ١٥٠٨). هذا الى تآليف مختلفة في الفقه والتاريخ والطب والجدل نضرب عن ذكرها صفحًا. وما لا مِرْية فيه انَّ هذه المطبعة العبرانيَّة لم تزل تعنى الآداب بمنشوراتها الى اواخر القرن الثامن عشر. وقد طبعت شيئًا قليلًا من تآليف الموسويين بالعربيَّة كبعض رسالات لابن ميمون وترجمة التوراة للفيومي كما مرّ لكن هذه المصنَّفات لم تُطبع بحرف عربي. وعليه ترى انَّ ما كتبهُ صاحب الهلال (٢٠٢:٦) عن اوائل الطباعة العربيَّة في الاستانة لا يكاد يُشتمّ منهُ رائحة الحقّ حيث يقول:

« ويظهر انَّ الطباعة العربية انتقلت الى الاستانة اولاً والدليل على ذلك انَّ التوارة العربية طُبعت طبعتها الاولى في الاستانة عام ١٥٥١ طبعها بعض الاسرائيليين وهي ترجمة سعيد الفيومي المشهورة. ونُسخ هذه الطبعة نادرةٌ جدًّا غير انَّ المطبعة التي طبعتها انطمس خبرها من ذلك الحين ولم تعد نسمع بمطبعة في الاستانة الى اوائل القرن الثامن عشر »

والصواب ما قلنا سابقًا. وسترى انَّ المطبوعات العربيَّة بالحرف العربي لم تظهر في الشرق الّا في اوائل القرن الثامن عشر في حلب الشهباء قبل القسطنطينية

وقبل ذكر هذه المطبوعات الحلبيَّة رأينا ان نلخّص تاريخ الطباعة في الاستانة ليكون القراء على بصيرة من احوالها فنقول:

انّ الطباعة العبرانيّة لم تنحصر في الاستانة بل نقل اليهود هـذا الفنّ الى غيرها من المدن لاسيما سالونيك فانّنا نجد فيها مطبعة عبرانيّة في اوائل القرن السادس عشر . ومنها برزت كتب دينية وعلمية منها خطب مدينا بن صموئيل سنة ١٥٢٠ ومجموع في الطب سنة ١٥٩٦ وغير ذلك

امّا الطباعة بالحروف العربيّة فقد ظهرت في دار السعادة على عهد السلطان الغازي احمد الثالث في العشر الثاني من القرن الثامن عشر والفضل في ذلك عائد الى محمد افندي چلبي المعروف بالثامن والعشرين (يكرمي سكز) والى ابنه سعيد افندي وكان كلاهما من ذوي المدارك السامية والهمم القعساء اطّلعا في باريس ايّام سفارة محمد افندي على منافع الطباعة فاحبّا ان يتحفا بها دار الخلافة . فلمّا عاد سعيد افندي الى الاستانة اخذ يسعى في إخراج مشروعه الى حيّز الوجود فتذاكر مع ارباب الدولة واجتذب الى رأيه اصحاب المعارف والفنون واجتمع بالصدر الاعظم ابراهيم باشا صهر الذات الشاهانية من مشاهير رجال ذلك العصر فصادق على نيّاته وساعده على تحقيق امانيه . ثمّ كتب سعيد افندي تقريرًا رفعهُ الصدر الاعظم الى الباب العالي فلم يلبث ان يصدر الفرمان الشريف مرخّصًا بطبع كلّ الكتب اللهمّ الّا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام . وكان سبق شيخ الاسلام عبد الله افندي فافتى باجراء ذلك (١ سنة ١١٢٩ هـ (١٧١٢ م)

ولقي سعيد افندي في الاستانة رجلًا مجريّ المولد والمنشأ نصرانيّ الدين كان اسلم وتخصّص بخدمة الدولة العثمانيّة يدعى ابراهيم اغا (٢ وهو من اصحاب الذكاء والتفنن عارفًا بالفنون والصنائع ماهرًا بالطباعة . فخابرهُ سعيد افندي وبذل كلاهما جهدهما في تأسيس المطبعة وجلب آلاتها وسكب قوالب حروفها

فلمّا اصبحت المطبعة تامّة الاهبة كاملة الادوات اخذ اصحابها في نشر الكتب التي كان العلماء في حاجة ماسّة اليها . واوّل كتاب طُبع في هذه المطبعة هو صحاح

١) راجع المجلد الاول من تاريخ جودت ترجمة صاحب السعادة عبد القادر افندي الدنا (ص٨١-٨٤) . وتاريخ الدولة العثمانيّة لهامر پرغشتال : Hammer — Purgstall : *Hist. de l'Empire Ottoman* XIV, 197

٢) ويعرف ايضًا بابراهيم متفرّقه (راتب تالهُ (متفرقه دركاه عالى) من الدولة

الجوهري المنقول الى التركيَّة بهمَّة وانقولي سنة ١١٤١ هـ (١٧٢٨ م لا سنة ١٧٣٠ كما زعم الهلال). ثم تاريخ الحاجّ خليفة « تحفة الكبار في اسفار الابحار » في السنة عينها. وفي العام التالي (١٧٢٩) طبعت اربعة كتب تركية وهي: تاريخ تيمور لنك لابن عربشاه (تاريخي تيمورجهان) نقلهُ نظمي زاده. وتاريخ مصر لسهيل. وتاريخي هندي غربي وتاريخي سيَّاح. ويحتوي هذا الكتابان الاخيران تاريخ اميركا وتاريخ حرب الافغان في سنة ١٧٣٠ وكان نقلهما الى التركيَّة الاب اليسوعي كروزنسكي (Krusinski) من علماء ذلك العصر واحد اصدقاء ابراهيم اغا. سكن اوَّلًا اصفهان ونشر الدين الكاثوليكي بين الارمن واتقن الفارسيَّة والتركية فعهد اليهِ الاحبار الرومانيون مهمَّات عديدة وخدم الآداب التركيَّة خدمات جليلة. وفي السنة الثالثة لانشاء هذه المطبعة برز منها تاريخ (حديقة) الخلفاء (كلشن خلفا) لنظمي زاده (١١٤٣—١٧٣٠) ثمَّ طبع سنة ١١٤٤ كتاب ابراهيم افندي في الابرة المغناطيسيَّة (فيوضات مغناطيسيَّه) وبعض تواريخ تركيَّة كتقويم التواريخ وتاريخ نعيما وتاريخ راشد وتاريخ عمر افندي

قال المؤرخ الضليع جودت باشا في تاريخهِ (ج ١ : ٨٣): « وعدا عن ذلك فقد حفر ابرهيم افندي حروفاً فرنسويَّة وطبع خريطتي البحرين الاسود والخزر باللغتين التركيَّة والفرنسويَّة. ثم توفي سنة ١١٥٨ (١٧٤٥) وخلفهُ ابراهيم افندي القاضي فطبع قاموس وانقولي مرَّة ثانية وكتباً أخرى الَّا انَّهُ وُجد في طبع هذه الكتب كثير من الغلط والسهو مع رداءة الحروف

« ثمَّ توفي ابراهيم افندي حينما كانت الدولة العليَّة مشغولة بمشاغل كليَّة فلم يكن لها وقت ان تأخذ في العمل من بعدهِ لاحد فبقيت المطبعة المذكورة معطَّلة مدَّة مديدة ثمَّ فتحت في سنة ١١٩٨ (١٧٨٣ م) فطبع فيها تاريخا صبحي وغربي وكتاب اصول المعارف في ترتيب العسكر وكتاب اعراب الكافية ورسالتان في فن الانتظام والحرب للمرشال وبان (Vauban) وترجمة قوانين الملاحة للسيو تروكه (Troquet) واصول المعارف في ترتيب الاساطيل. وهذه الكتب لم تطبع خالية من الغلط كالكتب التي طبعها ابراهيم متفرقه

« ثمَّ صُبَّت حروف جديدة بنظارة عبد الرحيم افندي عند ما اشتدَّت الرغبة في رواج الامور النافعة ايَّام الدور السليمي فأُسست مطابع جديدة في اسكدار وقبره

خانه وطبع فيها من الكتب المفيدة نحو من خمسة واربعين كتاباً وانشئت مطابع جديدة أخرى وبلغت الصناعة المذكورة بالتدريج في دار السعادة الى الدرجة التي نشاهدها الآن » اه

هذا واكثر التآليف التي نُشرت بالطبع في دار السعادة في القرن الثامن عشر كانت باللغة التركيَّة. وقليل منها بالفارسيَّة والعربيَّة. ولمَّا عادت الطباعة القسطنطينية الى رونقها الاول في غرَّة هذا العصر تعدَّدت المطبوعات العربيَّة واجاز ذوو الامر طبع الكتب الدينيَّة فنُشر منها شيء كثير (١ وهذه اهمّ المطبوعات العربيَّة التي ظهرت في الاستانة مع ذكر تاريخها: كتاب تحرير اصول الحكيم اوقليدس لنصير الدين الطوسي (١٢١٦—١٨٠١) اظهار الاسرار للبركوي (١٢١٩—١٨٠٥) تهذيب المنطق للكلنبويّ (١٢٣٣—١٨١٩) رسالة الامكان لهُ (١٢٦٣—١٨٤٧) فقه الكدوسي (١٢٣٧—١٨٢١) شرح الرسالة الشمسيَّة في القواعد المنطقيَّة (١٢٣٨—١٨٢٢) وشرح القاموس لعاصم افندي (١٢٥٠—١٨٣٤) ملتقى الابحر لابراهيم الحلبي (١٢٥٨—١٨٤٢) شرحهُ « مجمع الانهر » لعبد الرحمان المدعو شيخ زاده (١٢٩٢—١٨٧٥) شرح غرر الاحكام لمحمَّد بن فرامرز وتفسير البيضويّ (١٢٨٥—١٨٦٨) وشرح مقاصد عضد الدين الايجي للسيد الشريف الجرجاني (١٢٨٦—١٨٧٠) ومفتاح التفاسير لمحمَّد شريف الحافظ (١٢٨٩—١٨٧٣) وشمائل النبي للشيخ محمد الترمذي (١٢٦٤—١٨٤٨) تعليقات السيلكوني على شرح العقائد (١٢٣٥—١٨٢٠). وقد طُبع في هذه الاعوام الاخيرة كتب كثيرة كالطراز الانفس في شعر الاخرس وديوان سهيل بن مرزوق الدياسيّ وسرّ الليال في القلب والابدال (١٢٨٤—١٨٦٨) وتاريخ ابي الفداء طبع في المطبعة السلطانية (١٢٨٥—١٨٧٠) وشرح قراح الارواح في الصرف وكتاب انيس الجليس وغير ذلك مما يطول شرحهُ

١) قال جودت باشا في تاريخهِ ترجمة صاحب السعادة عبد القادر افندي الدنا رئيس محكمة تجارة بيروت (ص٨٤) ما حرفهُ: « لم يرَ علماء اصول الفقه من بأس بطبع الكتب الشرعية وان كان فيهِ اعمال تملّ بتعظيمها وذلك استناداً على القضية المسلمة عندهم وهي « الامور بمقاصدها » فاهم بناء على هذه القضية اجازوا تجليد القرآن الكريم خوفاً من شتات اوراقه وضياعها مع ان في التجليد اموراً تملّ بالتعظيم اكثر من الطبع مثل الرضّ بالمطارق والتضييق بالملازم والمقاصد المتيسرة في تكثير الكتب نوعوا طبعها تسهيلاً لمنافع الطلبة فاستفاد من ذلك جميع اصحاب الفنون »

ومن المطابع التي اشتهرت في الاستانة منذ نحو اربعين سنة مطبعة الجوائب نُشرت فيها تآليف جليلة كالجاسوس على القاموس وديوان البحتري وديوان الطغرائي وديوان العباس بن الاحنف ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ورسائل الخوارزمي والهمذاني والموازنة بين ابي تمّام والبحتري ومقامات السيوطي وامثال العرب للضبّي ونثار الازهار في الليل والنهار ودرّة الغوّاص للحريريّ مع شرحها للخفاجي وتحفة الطرف في علم الصرف للميداني وادب الدنيا والدين للماورديّ ورسائل شتى لابن سينا والثعالبي والمقريزي وغيرهم وكلُّها بحرف مُشرق جلي وورق صفيق

هذه لمعة في تاريخ طباعة الاستانة اثبتناها بغاية ما امكن من الايجاز . ويلحق بها تاريخ المطابع التي أُنشئت في اوائل القرن التاسع عشر في اسكدار وازمير وقبره خانه غير انَّ المطبوعات التي خرجت منها قليلة وهي كلُّها تركيَّة واكثرها دينيَّة . واذا اضفتَ الى هذه المنشورات عدداً كبيراً من الجرائد التي اخذت في الشيوع منذ ستين سنة فهمت ما اصابتهُ الاستانة العليَّة من الترقي والنجاح الادبي في ظلّ السلاطين العظام ثبَّت الله اركان دولتهم مدى الاعوام (ستأتي البقيَّة)

السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل رينو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل الرابع

في الغرق

وبعد مضيّ اربع وعشرين ساعة خمد هياج الزوبعة قليلاً وسكن ثائر الامواج وهدأت الريح بعض الهدوء وزال ذلك الاضطراب الشديد الذي كان يتلاعب بالسفينة ويوشك ان يكسرها ويصيرها حطاماً . غير انَّ اماثر القلق بدت على وجه الرَّبان لأنهُ رأى انَّ السكَّان (الدفَّة) قد اختلَّ فلم يعد يطيع الحركة التي يحرّكهُ بها وشاهد انَّ الجزء الاسفل من السفينة قد ضعف جدًّا فصار يتوقع من دقيقة الى اخرى حدوث ثقب تدخل منهُ المياه . وبما انهُ لم يكن في السفينة سوى مضخَّة صغيرة لا تقوى على استخراج